المحاضرة الثانية:

الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية في عصر الضّعف

1 -الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في عصر الضعف:

وضع المغول أيديهم على دار الخلافة العباسية في بغداد 1258 م 656 /هـ، وألحقوا الدمار والخراب بكل ما وقعت عليه أيديهم فيها، فعبثوا بالدماء، والأعراض والأموال، وخربوا التراث الفكري والعلمي، وفي مقدمتها مكتبة دار الحكمة " وباقي المكتبات، وهدموا ما صادفهم من عمران ومعالم حضارية، ونشروا الرعب والفزع والهلع في كل مكان، فهام كل بغدادي على وجهه يتلو قوله تعالى" يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا "؛ ومن بغداد توجه التتار صوب الشام فاكتسحوا حلب؛ ودمشق ومدن فلسطين التي أصابها منهم ما أصاب بغداد.

ومن حسن الحظ أنه وقبيل أن يجتاح المغول بغداد كان المماليك قد أقاموا دولة لهم في مصر، وبسطوا سيطرتهم على الشام والحجاز، وهم الذين تصدوا للمغول في طريقهم إلى مصر سنة 658 هـ/1260م، وبفضل بسالة جيوشهم وبقيادة السلطان المملوكي سيف الدين قطز؛ وقائد جيشه الظاهر بيبرس، تلقى التتار هزيمة ساحقة نكراء في معركة" عين جالوت " ، جعلتهم يتراجعون مدحورين نحو آسيا الوسطى ولكن دون أن ينهي ذلك تهديدهم الذي استمر حتى وفاة تيمورلنك سنة 1404م.

– هجر الكثير من العلماء والأدباء وطلاب العلم بغداد، وحلب، ودمشق وباقي المدن العباسية المدمرة نحو الأقاليم العربية والإسلامية التي استعصت على الغزاة ؛ وسَلِمَتْ مِنْ بطشِ المغول والصليبين وفي مقدمتها؛ الشام؛ والحجاز؛ ومصر والتي وجد بها الفارون والمهاجرون ملاجئ تأويهم تحت حكم المماليك بالرغم مما كان بين هؤلاء من فتن ومنازعات أضرت بالاستقرار وبالأمن والسلم الاجتماعي ومعايش الناس.

– أما في المغرب العربي، فكانت بداية الهجمات الصليبية متزامنة مع سقوط مدينة طليطلة سنة 478هـ/ 1086 م ، وتعززت أكثر حين دعا البابا "أوربان" المسيحيين إلى مساندة الإسبان في حروبهم ضد المسلمين سنة 481 هـ/ 1089 م ؛ وحرّم على الإسبان مشاركة غيرهم من الأوربيين في الحملات الصليبية على المشرق بقيادة الكنيسة، وفي المقابل كلفهم بمهمة دحر المسلمين وطردهم من الأندلس؛ وكذلك كان الحال؛ فبدت الصلة وثيقة بين الحروب الصليبية العامة التي كانت تهدف إلى استعمار بيت المقدس؛ والمدن المقدسة في فلسطين، وبين الحروب الصليبية بالمغرب التي كانت تهدف إلى استرجاع إسبانيا إلى حظيرة النصرانية من جهة؛ وإلى محاربة الإسلام؛ ومحاولة القضاء عليه من جهة أخرى .وتمكن الصليبيون في الغرب من إحراز النصر الذي عجزوا عن تحقيقه في المشرق؛ وخاصة بعد سقوط دولة الموحدين سنة 668 هـ/ 1269م وهو الحدث الذي أغرى الصليبين وشجعهم أكثر على حشد كل ما يمكنهم من قوى وموارد لطرد العرب والمسلمين من الأندلس وبصفة نهائية، وقد تحقق لهم ذلك في الثاني من شهر ربيع الأول، لسنة 897 هـ/ الموافق 2 من يناير سنة 1492 م ؛ ولم تأت سنة 1520 حتى كان كل الساحل الغربي للمغرب الأقصى خاضعا لحكم البرتغاليين.

– استنزف الاجتياح المغولي المتوحش، والتصدي للحملات الصليبية المتتالية والطويلة في المشرق والمغرب قدرات الناس؛ وأنهك مواردهم، وأضيف ذلك كله إلى أعباء الخلافات والمنازعات والحروب؛ والاضطرابات المحلية التي كانت سائدة ومستمرة بين سلاطين وأمراء الأقاليم المتنافرة المتناحرة حتى بين المماليك أنفسهم داخل مصر ذاتها، فلم تتحسن أوضاع الناس بعد انكفاء المغول يجرون أذيال الهزيمة؛ واندحار الصليبيين على يد صلاح الدين الأيوبي، بل راح تدهور الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية والأدبية يزداد سوءا يوما بعد يوم، وعاما بعد عام، فتعاظمت الكوارث الطبيعة من فيضانات وسيول غامرة جارفة، تتلوها فترات قحط وجفاف مدمرة، وانتشرت الأوبئة وعلى رأسها الطاعون، وقلت المكاسب، وفحش الغلاء؛ فعم الفقر والفاقة، وتوسعت الفجوة بين الطبقات، وطالت المظالم جماهير العامة، وكثرت الخلافات والحركات الهدامة وما يتبع ذلك كله من انتشار الأوهام والبدع ومن نشوب المنازعات.

2. الحياة الفكرية والثقافية والأدبية في عصر الضعف:

تميزت الحياة الفكرية والثقافية والأدبية في هذا العصر بمجموعة من الخصائص والمميزات يمكن إجمالها فيما يلي

– اتصفت الفترة الأولى من عصر الضعف بشكل عام باحترام المماليك للغة العربية، التي حفظوا لها مكانتها؛ وصانوا هيبتها من خلال اتخاذها لغة رسمية في دواوين الدولة، وعلى رأسها ديوان الإنشاء الذي كان يختار للعمل فيه أبرع أهل اللغة والأدب والكتابة. كما اعترفوا بفضل العلماء ورجال الدين الوافدين من بغداد، والبصرة؛ وحلب وغيرها فقاموا بتعظيمهم ورعايتهم، ومشاورتهم في أمورهم العليا، واختيار أَصْلَحَهم لولاية القضاء والتعليم ونحوهما .وقد كان ذلك سببا في رواج العربية، وفي رواج الفصحى داخل الدواوين، وبخاصة في كتابة المراسلات والوثائق العليا، وسببا في ظهور طبقات ممتازة من رجال اللغة والأدب والإنشاء، وهذا أعطى أفضلية للنثر والناثرين على الشعر والشعراء، وخاصة في الكتابة الديوانية.

وفي ما يتعلق بمجال العلم والأدب والثقافة في المغرب العربي؛ فإن الكتب تذكر أن الحفصيين بتونس، والزيانيين بتلمسان والمرينيين بالمغرب أسسوا بعض المدارس، والتي كان ينفق عليها في الغالب من مداخيل أملاك وقفية تابعة لها تبرع بها أهل البر والإحسان ، ولكن لم تكن من حيث الكثرة والمستوى على قدر حاجة المجتمع، وأنّ الذي سد العجز وغطى الحاجة هي الزوايا التي بدأت تتكاثر مع بداية القرن الثامن الهجري، يؤمها طلاب العلم من كل حدب وصوب، ومن مختلف طبقات وأعراق المجتمع؛ وازداد نموها وانتشارها مع مرور الزمن وتمحور التعليم فيها حول العلوم الدينية واللغوية، بالإضافة إلى الزهد والتصوف .وقد تميزت هذه الفترة بمجموعة من الخصائص نلخصها في:

قلة الدواعي والأسباب الدافعة إلى قول الشعر :

قَلَّتْ في هذا العصر دواعي قول الشعر عما كانت عليه في العصور السابقة على الرغم مما سبق ذكره؛ ذلك لأن معظم ما قام به سلاطين المماليك ووزرائهم لم يكن حبا في اللغة العربية وآدابها، وإنما كان نزولا عند مقتضيات السياسة؛ وفي مقدمتها استرضاء الشعب العربي المسلم الذي يحكمونه، واستمالة رجال الدين للاستعانة بسطوتهم الواسعة التي كانوا يتمتعون بها لدى العامة في تثبيت أركان ملكهم، خصوصا وأن عامة الناس ومعظم السلاطين على وعي تام بحقيقة كونهم زنوج؛ مماليك، ورقيق جلبوا إلى مصر من إفريقيا عن طريق التجارة؛ ونشئوا تنشئة عسكرية فغلب على طباعهم الميل إلى

الخشونة والصلف؛ لا يتقنون العربية، ويصعب عليهم إدراك معاني الشعر وعناصر الجمال فيه وبالتالي تذوقه، فهم أعاجم عن العربية، فليسوا إذن على استعداد فطري للإنصات إلى شعرائها والعطف عليهم.

تنافس بعض السلاطين والأمراء والوزراء في إغراء العلماء والمفكرين والأدباء والشعراء:

على الرغم من كون المماليك أعاجم، إلا أن هذا الأمر لم يمنعهم من السعي إلى إضفاء الصبغة العربية الإسلامية على مظاهر ملكهم، من خلال سلوك ما ألف ملوك الدولة العباسية سلوكه كتقريب العلماء الشعراء وجلب أكبر عدد منهم أوشهرهم إلى بلاط السلطنة أو الإمارة لتزيين المجالس السلطانية والأميرية، والتفاخر بما يلقونه من خطب وينشدونه من مدائح، وكل يطمع في تحقيق بغيته؛ فالسلاطين والأمراء من المماليك يرغبون في توظيف الأدباء والشعراء كوسائل إعلام دعائية تنشئ وتنشر وتذيع قصائد المدح والتمجيد، والإشادة بمآثرهم الحاضرة، ومعاركهم الجهادية في حماية الدين والأوطان، بشجاعة وحنكة أفتقدها الناس لدى ملوكهم وقاداتهم العرب وتغطي على وضاعة أصولهم، وقلة شأنهم في ماضيهم، وترفع صيتهم ، وتسمو بمقاماتهم على مقامات نظرائهم وخصومهم؛ ومنافسيهم، وتقوي إعجاب الرعية بهم وتمثّن ولاءها لهم. ورجال العلم والأدب يسعون من جهتهم إلى تحسين أوضاعهم المادية والمعيشية، وتعزيز مراكزهم الاجتماعية بما يحصلونه وينالونه من عطايا وهبات ومكافآت.

وفرة المساجد ،والمدارس والزوايا والكتاتيب:

رغم أن المماليك كانوا عجما من أصول زنجية إفريقية، إلا أنَّ صِدقَ عقيدتهم الدينية جعلتهم يَحْتَفُونَ باللغةِ العربيةِ، ويُولُونها ما تستحق من عناية ورعاية واهتمام باعتبارها لُغَةَ القرآنِ الكريم، فبنوا عددا كبيرا من المدارس في جميع أنحاء البلاد، وفتحوا أبوابها أمام جميع الراغبين في الاستفادة، يأتون إليها ليستمعوا إلى ما يلقى في حلقاتها.

نظام التعليم:

كانت الصبغة الغالبة على التعليم وطرقه في مدارس هذا العصر هي الصبغة الفوضوية؛ فالدراسة أضحت بلا ضوابط؛ وفي غياب القوانين التنظيمة، والطرائق الواضحة، مع انعدام المناهج والأهداف والغايات المحددة، والجمع بين علوم شتى، في مقدمتها تحفيظ القرآن، والحديث، والعلوم الدينية، من فقه، وتفسير، وسير، وعلوم اللغة وآدابها، والرياضيات، والفلك، والتاريخ الجغرافيا، والحساب والجبر والهندسة، والطب والموسيقى.

ازدهار حركة الجمع والتأليف:

أحس العلماء والأدباء في مصر، والشام، والحجاز، والمغرب العربي بفداحة الخراب الذي ألحقه الغزو المغولي التتاري، والنهب الصليبي لذخائر العلوم والآداب ونفائسها، ولمصادر الثقافة العربية الإسلامية ؛ وما نجم عن ذلك من فراغ علمي رهيب؛ وأضرار لا تجبر؛ كما أحسوا بثقل المسؤولية الأخلاقية، والعلمية والدينية والتاريخية الملقاة على عاتقهم في جمع ما بقي عالقا بالصدور من آثار استعصت على عوامل الفناء، وإنقاذ ما يمكن إنقاذه وحفظه من الضياع، خاصة بعد أن وفر لهم المماليك الظروف المساعدة من استقرار وأمن ودعة، فبادروا إلى ذلك وأقبلوا عليه بالتدريس والخطابة، وبالكتابة والتدوين: جمعا وتصنيفا وشرحا وتعليقا، وغيرها من ألوان النشاط، فانعكس ذلك كله في كثرة التآليف التي تميز بها هذا العصر، الذي عرف بعصر الموسوعات.